

بناء الطبيعة

بقلم إيمان المدلّة



عندي ان دراسة سير كبار الفنانين تجمع بين امرين مهمين لدى الغالبية العظمى من المثقفين وهما :
الفائدة والمتعة ، ولو استقصينا سير الفنانين لوجدنا ان طائفة حسنة منهم قد لقيت من الناس افضل التفهم
لشخصياتهم وانصف التقييم لمواهبهم ، غير ان طائفة اخرى من الفنانين لم يكتب لها ان تكون مع الناس على
مثل ذلك الوفاق المريح ، ومن ثم لم ينتفع بحياة اي منهم على الشكل المطلوب . ولقد عانى بعض اولئك
صنوف الاذى ومر الالم اثناء حياتهم ، بل لقوا الدواهي حتى بعد مماتهم ، وفي مقال لي بمجلة الآداب (عدد
نيسان ١٩٧٠) تعرضت لطرف من سيرة احدهم وقد ابتلي بتلك المصيبة ، واعني به شاعرنا المبدع العظيم
ابا الطيب المتنبى ، ثم ان هناك عبقریات اجنبية عن تراثنا العربي ومن المفيد لعشاق الادب والحقيقة والجمال
ان يتعرفوا الى اصحابها او يزدادوا منهم قريبا ، لان الفنان في كل صقع من الارض وعلى مدى الآبآد
والعصور لا يكاد يتذوق طعم الراحة النفسية ، او يفوز بارتواء القلب حتى يلتقي في عوالم الفن الرحبية وعلى
اقصى اطراف الزمان والمكان بالفنانين الآخرين الذين يسرون على دربه ذاته ، يواصلون - مثله - التقدم
في الطريق الغامض والوعر وغير المطروق . وهم لا يستنبرون الا برؤاهم المجنحة البعيدة التي تحولها
البشرية بعدهم الى حقائق راسخة بهية ، وواقع صلب مشرق .
ولعل في هذا تفسيراً مقبولاً لاختيار (تيرنر) موضوعاً لبحث اليوم (x) .

(المترجمة)

تدفعه نزعة حادة الى اجتلاء وجه الارض والبحر والسماء ، وتأمل
الانهار المنسابة والسحب السننيرة والمنحدرات المخضرة ومرافسة
حالات الغروب واضطراب الامواج . ثم يطيل التفكير في سر انبثاق
الحياة ثم ازدهارها ومصيرها بعد ذلك الى الفناء والتحلل . ويحوّل
كل ذلك الى فرائد masterpieces تبدها يد صنّاع ماهرة

وتعيّنه على انتاجها بنية قوية وجهاز عصبي فذّ ، وقابلية نادرة على
الكد والعمل ومقدرة فائقة على الاستفادة من الخبرات المتجددة ،
وتحمل خارق للمساق والمصاعب ، وأخيراً معرفة عميقة بأسرار الجمال
في الطبيعة يكاد يذكرنا بفهم مايكيل انجيلو Michael Angelo
لخفايا تركيب هيكل الانسان .

لقد تفوق تيرنر على جميع الرسامين حتى روبنز Rubens
في حجم الانتاج الذي انجزه طول حياته ، بمفرده وبدون ان يستعين
بتلميذ او مساعد ، اذ ترك بعد وفاته التي لوحه كاملة وتسعة عشر
الف رسم وتخطيط من المستوى الممتاز ، علاوة على ثروة تقدر بمائة
واربعين الف باون ! ولو اجرينا مقارنة سريعة بين مناظره ومناظر
الهولنديين او حتى الانطباعيين الفرنسيين لظهر البون شاسعا بين
رسامين ينظرون الى الطبيعة من كوة ضيقة ، ورسام فرد يدرس

ويليام تيرنر الرسام الانجليزي المعروف بقدراته الابداعية الخلافة
في تصوير مشاهد الطبيعة ، شخصية فنية غريبة طالما اثارت اشد
الجدال وأعلى الضجيج ، لما يلف سيرة صاحبها من غموض وابهام
ناجمين عن الحواجز المنيعه التي كان يضعها عامدا في طريق الباحثين
عن احوال اسرته وحقيقة نشأته وظروف حياته .

ولد عام ١٧٧٥ م وتميزت حياته بالحركة الدائبة والنشاط
الدهش اذ ما كاد يبلغ السنة العاشرة من عمره حتى صار فنانا
محترفا . وعند الخامسة عشرة كان قد تتلمذ على سبعة من كبار
اساتذة الفن ، وأدخلت لوحاته في معروضات الاكاديمية الملكية . اما
في العشرين فقد امسى فنانا شهيرا . وكان الى جانب ذلك كثير
اليسفر دائم الترحال لا يشبهه عن ذلك صحو او مطر . فهو يتجول في
ارحاء بريطانيا قاطعا خمسة وعشرين ميلا في اليوم الواحد على قدميه ،

(x) هذا المقال مترجم عن كتاب :

Men of Art BY Thomas Craven Halcyon House -
New York

ترتيب الكون ثم يصور الدراما العالمية بأكملها .

اللسان . وفي هذا تفسير حقيقي لما عرف عنه من اثار الصمت في المجتمعات والمجالس .

وكان شغفه بالطبيعة هائلا، وعلمه بمظاهرها ومشاهدها موسوعيا، وهذه المعرفة بالطبيعة استندت لديه على الفضول العلمي والتأمل، والتعري في آن واحد . وكان يكسف في الطبيعة يوميا شيئا جديدا يشير عنده اعظم الاهتمام ، فيستند عزمه ، وتضاعف لهفته على مواصلة التقدم في بحونه واكتشافاته . يروي احد معارفه انه كان ذات يوم يمشي على ضفاف نهر التيمس فوقع بصره على رجل نحيل دقيق الكفين والقدمين ، يبردي مغطا بنيا طويلا (صدرية) مخططة ، وفيها مبهرجا فضفاضا ، جالسا الفرفصاء على الرمل وهو يطيل التحديق في الماء وكأنه قد فعل عن العالم وما فيه . ومضت نصف ساعه وهو على تلك الهيئه لا يبدي حراكا . وحين نهض اخيرا عرفه صديقه ، لقد كان نيرنر !! ولما ساله عن سر نامله القريب في الماء اجاب ببساطة: كنت اراقب التيار لاعرف فعل الموج وانثيرها على رمال الساطيء .

هذه الرغبة الملحة لنفهم اسرار الطبيعة ولدت في نفس نيرنر من ايام طفوله . ذلك ان نهر التيمس كان يجري قريبا من محل عمل ابيه . فكان يلجأ الى هذا النهر دائما . وهناك يلبث الساعات الطوال ملاحظا المدينة بمخازنها النجارية التي لا يحصى لها عدد ، ومصانعها الضخمة التي تنفث الدخان الاسود ، وذلك الضباب المعتم السذي يخفق انفاس الناس ، وجسور لندن التي تعبر نحتها اسفن ، كان يرقب العمال في حركتهم الدائبة ، ويابني الاسماك وفوارب الصيد ، وبين النحين والاحر ينسل الى البحر ليركب السفن السريعة ويعودها بنفسه ممسكا بالسارية والحيال كما يفعل اي بحار . في تلك الايام البعيدة لم يعبر بالجمال والعبق ، وانما كان يدرس ويسأل ويلاحظ، ليفهم كيف تؤثر الاشياء في نفس الانسان ، وبهذا كان يتعلم الفن . وفي اول الامر شرع يحفر على الصحف والاواني ويلون رسوما عليها ليبيعها للراغبين بامان زهيدة . وبعد العاشرة انصرف الى المدرسين بلقنونه فهم غير انه لم يجد لديهم ما يريد . وفي الاكاديمية الملكية صار يرسم التماذج العارية بصورة معتة . غير ان مواهبه - من البدايه - بدت في تصوير المناظر الطبيعية . ولم يزد من الزمان الا براعه في هذا الميدان واعمالا ناما لهيكل الانسان . وعلى ذلك هجر رسم الاشخاص الى الابد ، بما كما جعل اللفة والكلام .

ومنذ البدايه احب الاصباغ المائية وانرها اذ رآها اكثر شفافية واشد صفاء من غيرها . ويبدو ان هذه الاصباغ من مبدعات الفنانين الانجليز . وقد وفق نيرنر الى تطوير امكانياتها اعظم نوبيق . ولو حاولنا المقارنة بين رسومه المائية ومجموعة الرسوم المائية لجمييع الفنانين الاخرين ، لبدت رسومهم نافه بل مجرد تخطيطات اوليه لم تتحول ابدا الى لوحات متكاملة . ونورد على سبيل المثال في هذا المجال تخطيطات كونسنتابل وسيزان بالالوان المائية ، فقد كانت - على مهارتهما في التلون - مجرد تخطيطات . اما نيرنر فقد انتج بالالوان المائية اعمالا فنية كاملة رائعة الجمال . وكان اسماؤه السذي لقنه اصول استعمالها هو غيرين Girtin وهو رسام مصدور ومدمن على الشراب ، صرغنه العلة قبل بلوغ الثلاثين غير انه مع ذلك كان فنانا كبيرا ، وكثيرا ما ذكره نيرنر بعطف يشوبه التهمك قائلا : «لو عاش غيرين لمت جوعا ، وكنت مستعدا ان افقد احد اصابعي مقابل التوصل الى رسم صورة واحدة من صورته» .

ومنذ الخامسة عشرة من عمره بدأ يشغل اوقانه في تزيين الجدران داخل قصور الاغنياء من اهل الريف ، وفي العشر سنوات التي اعتقتها في العمل ذاته اذ كان يعتبره تدریسا مفيدا . وفي الوقت نفسه كان يقوم برحلاته المشهورة على قدميه منفردا حينما ومرافقا لصديقه غيرتين احيانا . وفي تلك الجولات كان يملأ اوراقه بالاشكال والخطوط وكتل الالوان ، وحين يجوع يسحب من طرف عصاه منديلا

غير ان هذه المواهب الفذة ، كان يقابلها لدى هذا الفنان الكبير طباع شاذة حيرت المعجبين بغنه ولبثت ثبير التساؤل بين زملائه واصدقائه . وكان اول ما اثار دهشة الناس شدة تحفظه في التحدث عن بيته واهله واصراره على كتمان كل ما يلقي اي ضوء على ظروف حياته الخاصة ، اذ لم يشاهده انسان واحد وهو يقوم برسم صورته ، ولا استطاع احد من الناس ان يزعم انه زاره في منزله . وظل الجميع في تساؤلهم وحيرتهم ، حتى كانت المرحلة الاخيرة من حياته حين دهمته آلام الشيخوخة وشرع المعجبون بغنه يبحثون عن مآواه ليعودوه في علته . وما كان اعجب الحقيقة عند تجليها ! واي تناقض بين الجمال والقيح !! لقد ظهر ان الجمال المذهل في لوحات نيرنر لم يكن يقابله في حياته الشخصية الا اشد القبح واقصى البشاعة . ولقد كان هؤلاء المعجبون على أم استعداد للذود عنه لو كان رجلا معدما فقيرا ، اما وهو ذلك المالك لثروة طائلة جمعت منذ الشباب ولم ينتفع بها احد ، فأي عذر يمكن ان تبرر به فناعته بالعيش الخسيس وسط الطبقات المنحطة والاحياء الموبوءة ؟

على ان ذلك كله لم يؤثر في قابليانه ، فقد ظلت معارفه تتراكم ومعلوماته تتنوع . وحلق خياله بعيدا حتى حطمت رؤاه الحدود الارضية وراح يسمو فوق دنيا الواقع متوجها نحو الشمس في علاما ورفعتها . لقد كان نيرنر مستسلما منصاعا لاوامر الفن ، غافلا عن وجوده الانساني ، فاطما كل صلة له بالمجتمع واعرفه ، متخذنا من البشاعة وحدة المزاج درعا يقيه فضول المنطلقين ونزرة الاجتماعيين! وكان يقول لنفسه : ان المثقفين بهمهم ان يجدوا الجمال في صورته، ولا دخل لهم بظروف حياته الخاصة ، ويجد في هذا التبرير عزاء وسلوانا .

والحق ان نيرنر عانى من مشاعر الذل والهوان الشيء الكثير بسبب ظروف نشأته واحوال اهله . فلقد كانت امه - التي لم يثر اليهسا بحرف واحد مدى حياته - امرأة مسترجلة كثيرة البشر مختلة الازنان . وحين اراحها الموت من الدنيا او اراح الدنيا منها ، لم يشأ احد ان يظهر الحزن عليها . اما ابوه فهو حلاق مهذار باذي الطمع ، وقد أوجز نيرنر طعمه بعبارة الابية : «لم افز من ابي بأي شكل من اشكال العطف او المحبة ، ولا اذكر من عواطفه نحوي الا حته لي على توفير نصف بنس من مصروفي اليومي» . ولكن هذا الاب اهتم كثيرا بتعليم ابنه وأرسله الى المدرسين يلقنونه اصول الفن ، حالما ادرك ان مواهب ابنه يمكن ان بدر عليه مبالغ محترمة من المال . اما نيرنر فقد عامل اياه معاملة طيبة ، وحين بقي الشيخ بدون عمل ، استأجر له مسكنا في الريف وترك له فيه حرية التصرف والادارة ، فكان الوالد يعد لابنه قماش الرسم ويعنى بشؤون البيت ويطلع الحديقة . ويذهب الى لندن صباح كل يوم في عربة احد الفلاحين ليوفر اجرة السفر مكتفيا بمنح صاحب العربة قدحا من الخمر .

لقد تلقى نيرنر تعليما مدرسيا محدودا ، ولكنه استفاد منه أقصى استفادة . ونشر الناقد ارمسترونغ - وهو افضل من درس نيرنر - رسائل كتبها الرسام في شبابه الاول ، عبر فيها عن آرائه بلغة انجليزية سليمة وواضحة ، وتكاد تخلو من الغلطات الاملائية واللغوية ، كذلك اثبت ان نيرنر كان على مستوى ثقافي عال ، وعلى الرغم من قلة مطالعته بسبب انهماكه الشديد في ممارسة فنه ، الا انه كان شأن جميع المثقفين الانجليز يحمل تقدیسا عميقا للتسرات الكلاسيكي . وعلى هذا فقد قرأ لأغلب الكتاب والشعراء القدامى مترجمين الى الانجليزية . وظهر تأثيرهم عليه في مواضيع رسومه ، وفي طابع الجلال الذي يطفى على صورته . واذا عبرت الايام ولقمت السنون ضعف بيانه اللغوي بينما انطلقت ريشته تفصح بمهارة فذة عن كل افكاره ومشاعره حتى اصيب بالعي وكاد ان ينسى لفظة

والسفن والبر والسماء ، في جو متائق شفاف ومموه بطراوة الهواء الطيف الشمسي .

ولكن حياته الشخصية في هذا العهد لم تكن موفقة على السبق ذاته . فلقد ازدادت عزلته رغم رغبته الحادة في الاندماج بالجماعة . ولو توخينا الحقيقة فان هذا الرجل كان انسانا اجتماعيا يحب المرح ويتمنى الالتصاق بالمجتمع غير ان اصله ومنشأه حالا دون ذلك . كان يتلهف للفوز باحترام الناس وصدافتهم غير انه لم يعرف السبيل الى ذلك . ولم يعلم انسان بمسئد إستماعه بالاجتماعات التي كانت تعقد على مائدة الاكاديمية - رغم جهله المطبق باداب المائدة . ولم يشعر احد بالزهو الذي انابه حين دعي الى احتلال كرسي رئيس الاكاديمية عند نفيه . لكن انهماكه الشديد في اعماله الفنية ادى الى مزيد من الانفراد ، ثم آل الامر به الى الانطواء على الذات ، وهكذا انطقت ميوله الاجتماعية واحدة بعد الاخرى . وصحيح ان تيرنر كان حاد الطبع بل شرسا احيانا ، الا انه مع ذلك كان طيب القلب كريم النفس يعين المعوزين من الفنانين سرا حتى لو ادى ذلك الى خسارة شخصية . ومما زاد الامر سوءا انه كان رجلا عيبا لا يحسن الحديث ، فحين عين استاذنا لعلم المنظور Perspective حرص كثير من الناس على الحضور الى القاعة لا للاستماع على محاضراته ، وانما للتمتع بوسائل الايضاح البديعة التي تخطها ريشته ! ولم يكن الامر بافضل من ذلك بالنسبة لاسلوب كتابته ، فحين الف قطعة من الشمع المنثور لشرح صور احد معارضه ، وُصف النقاد تلك القصيدة بانها أثقل ما كتبه فنان على مدى العصور !

بدأ تيرنر يعيا مع فتاة في السادسة عشرة من العمر منذ سنة ١٨٠٠ وكانت مدمرة منزله . وظلت معه حتى نهاية حياته وفي عام ١٨٠٢ رحل الى القارة الأوروبية ثم عاد مثقلا بمئات الرسوم التي تمثل فلاحين سويسريين ومناظر للابل ورافعات فرنسيات وصيادي سمك، وبنيات ، ومواضيع جامدة ، Still - Life وكان يركب في رحلانه سفن نقل الفحم ! ويتحمل كل حالات الجو ليدرسه عن كثب . وفي احدى رحلانه في بحر الشمال على ظهر سفينة صيد ، اضطر الى ربط نفسه بالحبال الى السارية ، عند هياج العاصفة ، مدة اربع ساعات ليرقب العناصر في غضبتها - على حد تعبيره - .

لقد كانت الاعوام الاولى من القرن التاسع عشر اسعد سني عمره . ففي تلك الفترة كان يمضي ايامه ضيفا معززا في قصر والترفوك ، احد اغنياء يوركشاير ، وهو رجل يهوى الفنون ، ويبدو انه الصديق الوحيد الذي فهمه واحبه . وفي سنة ١٨١٢ ابتاع تيرنر لنفسه منزلا في متلاصقين في شارع الملكة آن ، ليعيش فيهما ويعرض رسومه في قاعة احدهما دائما .

ويتساءل كثير من الناس عن علاقة تيرنر بالخادم التي كانت تساكنه . وعمما اذا كان هذا الرجل قد احب شيئا او احدا باستثناء الطبيعة والفن ! غير انه قد عرف بين اصحابه بشدة الحيوية وبغرابة الاطوار . وقد ولد له من تلك المرأة اربعة اطفال اصحاء فلم يلتفت اليهم ، ولم يعترف بابوته لهم .

ثم تقضت الايام وتصمرت السنون ، واطلت بوادر الشيخوخة ، واذا بالفنان الذي سحقته وطأة الكدح والعمل ينغمس في الشراب باحثا عن شيء لا يعرف له كنها ، وكأنه قد أصيب بمس ! وشيئا فشيئا وهنت الشخصية ، وذابت المحاسن ، وطفط طباع الفطرة الخشنة على مظهر الشباب وحلية الذكاء . وبدأ الرجل الجبار يفقد ثقته بنفسه ، فشرع يتقيب بين الحين والحين عن منزله مختفيا عن الانظار . . في الاوحال . .

بعد عام ١٨٢٥ يمسي تيرنر شيخا محظما مستوحشا من البشر يدفن نفسه بين الالوان والصور . فلقد مات ابوه ، وتوفي صديقه: مونرو وفوك . وقتل هو نفسه بالافراط الفكري والعمل الجسدي

ملفوقا ، وبسطه على الارض ثم تبدأ الوليمة الفاخرة ! لم يكن يعترف بالمشطبات ولا العوائق ، فهو ياكل اي طعام متيسر ، ويرقد في اي مكان قريب ، ويعمل في كل احوال الجو ، ويرضى بمختلف الظروف . كان الامر الوحيد الذي يثير سخطه تطفل الناس عليه اثناء العمل ولذلك فقد ابتدع وسيلة غريبة يحمي بها نفسه منهم ، فكان اذا عثر على المنظر المطلوب يتلفت حوله باحثا عن اقرب وهداة او حفرة ! فان وجدها هرع اليها ، وجلس عندها يرسم ، وحال رؤيته شيخ انسان قادم ، يترك عمله ويختفي وكان الارض قد ابتلعت ! وكان يقضي في كل دراسة من دراساته الفنية للمواضيع المختلفة ساعات طوالا ، وحين ترتوي روحه من مشهد الاكمام المتفتحة او الحفصول الوسنانة او القمام المتوشح باشعة الشمس ، يطوي ورقة الرسم طيتين ويدسها في جيبه العريض ليعود اليها في وقت اخر .

في ختام القرن الثامن عشر نرى تيرنر ملازما لصديقيه : الرسام غيرتين ، والدكتور مونرو ، طيب الملك الذي يتعشق الفنون وقد وجد في قصر الطبيب الفنان لوحات الاساتذة القدامى فيدا ينقل عنها مصورات يعدها للبيع ، كذلك وجد في مناظره المستمرة معه حول فن الرسام : كلود Claude سلية كبرى ، ومنعة عظيمة ، وفي هذه الفترة انتخب تيرنر عضوا في الاكاديمية الملكية .

ويعتبر عام ١٨٠٠ بداية عهد البحث عن الهدف والاسلوب ، وما كاد هذا العهد ينتهي حتى كان الفنان قد درس كل ملامح الارض والسماء والبحر ، وتفهم العمليات الطبيعية للكون ، مفرغا اياها في قالب ديني اسطوري . لقد كانت هذه الفترة فترة انتاج : خصيب ومتنوع . ولما كان يسعى الى السيطرة التامة على ادواته الفنية ليديرها كيف شاء ، فانه اضطر ، مثل اي فنان غيره ، الى مراجعة انتاج الفنانين القدامى . ولقد لفظ اعداؤه في موضوع سبائه مع كبار الفنانين وميله الى منافستهم في المكانة الفنية التي حصلوا عليها ، فاما سعيه الى مقارعة بيتيان ورامبرانت ، فانه لم يحصد منه غير الخيبة والفشل . واما محاولته للتفوق على فانديفيلد Vandevelde الهولندي ، فقد انصرف هو عنها مختارا ، اذ وجد نفسه احسن تفهما وادراكا لاسرار الطبيعة منه . غير اننا اذا نشدنا الحقيقة وحدها وجب ان ننزه تيرنر من رذيلة الحسد . فال ذات مرة مخاطبا رسكن Kuskin الذي كان يهاجم بعض الفنانين : «سيدي العزيز ، لو قدر لك ان تفهم معاناة الرسام في عمل اية صورة مهما فل شأنها ، لما هان عليك ان تتحدث عن الرسامين بكل هذه العسوف» . ثم ان اعجابه الشديد بفن غينسبره Gainsborough وولسن Wilson جعله يكيل الثناء لهما مع ما عرف عنه من العي والحصر . على ان فن تيرنر خال : من الكتابة التي تميز صور غينسبره ، والضعف الذي يقلل من قيمة صور ولسن ، لان لوحات تيرنر ذات طابع مثير ، وعظيم الجلال في الوقت ذاته ، اذ تمثل الحياة والطبيعة في مواجهتهما للاقدار . غير ان تيرنر كان يهفو الى بلوغ مرتبة كلود Claude الذي عرف - احسن من اي رسام اخر - كيف ينقل صورة الشمس والسماء الى الورق .

وبين ١٨٠٠ - ١٨٢٠ انتج فرائده المشهورة masterpieces وفي اول الامر كان يطفى على لوحاته الرائعة اتجاهان : الاول واقفي ناشيء عن دراساته الطويلة للطبيعة ، والثاني مفرق في الخيال والشطحات الفجيية متأثرا ببوسان Poussin وكلود . على ان التزمتين سرعان ما التحمتا واتحدتا في انتاجه ، فلم يعد بالامكان التفريق بين النوعين . وبعد عودته من ايطاليا انزاحت العتمة من الوانه فتلاوات وازدهت بصفاء وشفافية . ثم خطا خطوة اخرى الى الامام حين ظهر بصلادة البناء الذي يميز الاشكال في الطبيعة ، وبعد ذلك بست سنوات ظهر تطور جديد ، اذ وفق الى اعداد التصاميم باشد عناية ، ثم التأليف بين تفصيلات الموضوع جامعا بين البحر

وتضاءلت قدرته على العمل فكان يضطر الى الخلود الى الراحة والانصراف عن الرسم بين الفينة والفينة .

غير ان ذلك كله لم يصرفه عن مسؤولياته الفنية ، ففي هذا العهد نفسه كان اهتمامه مركزا ومنصبيا على النور ، يدرس انعكاساته وتأثيراته في الاشكال ، وظل يبحث ويتفحص ويتأمل بطريقته الشمولية الغربية . وقرا (تأملات غوتيه) في الالوان ، ولكنه خاب في الكتاب ولم يجد فيه مبتغاه . كذلك اهتم بالفن الفونوغرافي الذي ظهر في تلك الايام ودرسه بدقة ، ثم أعلن رفضه له لانه يسرق الطبيعة ولا يصورها - على حد تعبيره .

وبعد عودته من رحلة اخرى الى ايطاليا ، بدأت لديه فتسرة التعبير الحر بحسب وصف النقاد . ومن المواضيع التي صممها في هذا العهد : (شمس فينسيا) و(سفينة الصيد) و (مدخل بينورث) و(المطر والبخار والسرعة) وكانت هذه اكمل نماذج للضياء المتكسر الشفاف الذي سلب الباب الرسامين الفرنسيين بعد ثلاثين عاما لا سيما بيسارو Pissarro و مونييه Monet

لقد كانت تلك آخر فرانس بيرنر ، وبعدها طفت العتمة على وهج الوانه . وبدأ منذ سنة ١٨٤٥ يقطع رحلة الفناء اذ صارت رسومه نفصاح اختلال العقل ونبذ الشعور . وخمسل ذكره ، ونسيه الناس قبل ان يموت .

لقد تحول منزله في تلك الاثناء الى ظل دارس ! كان المطر ينقذ الى الداخل ، والصور قد تعفت بفعل الرطوبة ، وقطع الاثاث المبعثرة في كل انحاء المسكن نشير الى غياب اهله ! لقد اركمت على الارض ثلاثون الف صورة ونخيط ، لتعيث فيها الجرذان فسادا ، اذ لم يكن سموحا للمرأة التي تدير البيت ان تلمس شيئا منها !

وفي ذات يوم عام ١٨٥١ اختفى الرسام دون ان يترك عنوانا ، ولما بحثت الخادم ونقبت ، وتبعت آثاره وجدته مقيما مع امرأة عليلة تدعى مسز بوث في منزل يقوم على ضفاف النهر ! وفي هذا المكان قدر للنبالة ان تنطفئ وتخدم . وقضى تيرنر ...

لقد اثرت حول تيرنر وفنه معركة ادبية حامية استمرت سنين طويلا ، ولم يكن المسؤول عن نشوبها غير اعداء الكاتب الإنجليزي الكبير جون رسكن J. Ruskin . ومن الممكن القول ان اي رسام - قبل تيرنر - لم يتح له ان يفوز ببناء ادب له ثقافة رسكن ، وجزالة اسلوبه ، وعمق تفهمه للفن . ولكي يفض اعداء رسكن من شائبة ، ويتجهجوا على آرائه الفنية ، وينقصوا من فصاحته ، قرأ رأيهم على ان يتزلوا من قدر الفنان الذي يعجب به اكثر من غيره ، وهو صاحب هذه الترجمة : ويليام نيرنر !

على ان عبقرية تيرنر لا يمكن ان تكون موضع تساؤل او شك ، فهو يملك الاداة الفنية الكاملة : باصرة نفاذة حادة ، وبصيرة منفتحة مرهفة ، وتمكن من التكنيك ، وحنق عظيم في استعمال المواد ، والى جانب ذلك كله مقدرة رائعة على التعبير بالخطوط والالوان والظلال على كل ما يجيش في نفسه ويتراءى له في الخيال .

كل ما في الطبيعة كان يشغل باله ويحرك اوتار قلبه ، فمن حصياء الشاطيء الى المياه المترقرة الى الجزر الوسنى الى الفمام الرمادي ، ومن الريف الهادئ الى العود الطري الى الورق النضر الى الزهر الناعس . وكان النور مصدر قلقه الاشد وموضوع افتنائه الاعمق ، فالشمس عنده منبع الحياة وسر الخلق . على انه لم يكن تاجرا يجمع الحقائق الجافة او عينات التربة والهواء ثم يعرضها على الورق للاعلان والبسح ، بل كان شاعرا يتفاعل مع الحياة التي يعيشها وينفعل بمظاهر الطبيعة الساحرة . وكانت انعكاسات الاشياء في نفسه

كثوية - اذا صح التعبير - وانا اتساءل فيما اذا كان شيكسبير نفسه قد بلغ هذا المستوى من رهافة الحس وعمق التأثر بالطبيعة ، اذ كان تيرنر شديد الشغف بمراقبة احوال الطبيعة ونقلها ، وملاحظة العلاقات التي نشد الاشياء الى بعضها وصلة ذلك كله بالانسان . وحتى في اسرع التخطيطات التي صممها ، لم يكن مجرد عالم يصف الخصائص الظاهرية للاشياء ، بل كانت اشكاله تتطور بناء على فوائدها الخلاقة الذاتية . ولما كان هذا الفنان مخلصا لعصره ، فانه جمع في صورته كل الاتجاهات الشعرية التي اكتسحت عالم الفن آنذاك . وكان يسعى الى مقارنة كرم الطبيعة وسخاها بالنشاط التخريبي للانسان . عارضا ذلك كله في الف هيئة من الفخامة وفي مسحة وديعة من الفموض والجلال . اما عن الموضوع والمحتوى فان تيرنر لم يدخر وسعا في تقديم مفاهيمه ومدركاته وعرض انعكاسه ، على شكل لوحات كبيرة ومحاورات جميلة وتخطيطات مدهشة ، افصح فيها عن آلاف الافكار التي كان يتلفه الى التصريح بها . اما عيوبه فهي تعيد الى الذاكرة عيوب شيكسبير : انها الخصوبة الابداعية والوفرة الانتاجية !

ناء تيرنر بالمعب الذي ارهق ارواح الفنانين على مدى العصور اعني موقف الانسان حيال فوازين الطبيعة وجبروت الافداف . لقد كتب له ان يعيش في الحضيض ويموت في الوحل . تلك كانت مأساهه ، ومع ذلك فقد انتصر على قدره ، وتفوق حتى على ذاته ! اذ بلغ في عالم الفن القمم التي عجز عن بلوغها ايما رسام غيره ، شغف بالطبيعة وفنتته محاسنها فانصرف اليها ، وهجر الناس من اجلها ثم عرض لوحاته امام الاعين دون ان تعجز ريشته المطواعة عن تصوير صلابة التربة او تركيب البحر او تكوين السهول او بنيان السوج او هبوب العاصفة ، لقد اظهر كل ذلك في بيان انساني شديد المتانة ، ولم يحاول ابدا التهرب باللجوء الى الرمزاو الابداء او الحيل اللونية ! ثم وجدنا النور في لوحاته كلها ينطلق من مصدر واحد متحركا حركة تراجميدية رائعة هي حركة الطبيعة ذاتها .

في آثار بيرنر لا نجد راحة ولا تنلهس فرحا . وانما هناك الدراما والصراع ثم سكين الموت والنهائة . وهو يصور مظاهر التحلل وعوامل الفناء بابهي حلة وافخم جلال ، تماما مثل الموت في عالم الواقع وثمة طابع خاص يميز جميع رسومه ذلك هو طابع الوحشة والشعسور بالوحدة فهو حين يرسم منظر العاصفة ويصور هياج البحر يضع قفرا مهدما عتيقا في زاوية قصية من اللوحة لتكون المقارنة على انم ما يكون من الصفاء والوضوح .

وتيرنر هو مكتشف الشمس بين الرسامين ! ففي رسومه تحولت لتول يوركشاير الى جبال مشتعلة باللهب واضحى نهر التيمس المصبب نهرا دافئا مثلانا . بل ان كل صورته انما تعبر عن جلال النور ورونق الشمس . كيف توصل الى تلك النتيجة ؟ انه يضع شعاعا ابيض ازاء ظل ارجواني ، وهو يظلي حطام السفينة الغرقى بالدم والنار . وحين يرسم تخريب الاعصار ، يصور الاشياء ذائبة في حزم مذهبة بالصفرة والحمرة والزمرد .

غير ان هذا الفنان ، حتى حين خارت قواه ، وانحطت مداركه ، لم ينس ابدا انه يرسم للناس : ليعونهم ولاخيلتهم ولافتدتهم ولعقولهم . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع ان نصدده من الرسامين الانطباعيين ، ولا من الاكاديميين . وافضل ما توصف به آثاره انها محاولات العبقرية للافصاح برسائل مادية وانسانية عن المطلق واللانهائي ، عن اسرار الكون ، وتراجميديا الحياة ، والدراما الانسانية الكبرى .

واعمرى ان بلوغ هذه الغاية النبيلة مطلب عسير ، لا يوفق اليه الا اصحاب المواهب الخارقة .

احسان الملايكة

بفداد